محمد رائد الدعوة والدعاة !

تستمع إلى من يتحدث فى موضوع جلل ، فتعجبك كثرة مادته ، وانطلاق لسانه ، وتشقيقه للقول فى شتى مناحيه ، ثم ينتهى الحديث ، وترجع إلى بيتك فلا تتذكر عن الرجل إلا أنه قال كثيرًا ، ودل على تمكن وسعة اطلاع ، ثم تستمع إلى إنسان آخر فى موضوع جلل ، فلا يريد أن يغمرك بالمادة الغزيرة ، ولا يتباهى بتوليد الكلام وتشقيقه ، ولكن تلمس فى قوله حرارة وإيمانًا يشدانك إليه ، فأنت معلق به لا يحيد طرفك لحظة عنه ، وإن حديثه ليسرى إلى قلبك فيفتح نوافذه ، ويضىء أماكن الظلمة فى أعماقه . فإذا انتهى من حديثه شغلك بنفسك ، وعدت إلى منزلك وخياله نصب عينيك ، ولكلماته فى خاطرك وقع الأجراس .

ما الفرق بين المتكلم الأول والمتكلم الثانى ؟

الأول : رجل محترف قد يكون محاميًّا ، وقد يكون محاضرًا ، وقد يكون خطيبًا كلف من غيره أن يتحدث فى موضوع يحتمه الموقف فاستعان بذكائه على تدبيج كلمة كثيرة الحجج متشققة الفروع ، دلت على علم وذكاء ، فإذا فرغ من مهمته أحس أنه مثل دوره وانتهى .. وربما التمس الأجر عند من وكلوه وأقاموه .

أما الثانى : فمؤمن عظيم الإيمان بقضيته ، غيور أعظم الغيرة على موضوعه ، وقد تشبعت به نفسه ، وتشربه وجدانه وجال فى أعماقه وسرى فى عروقه ، فإذا تكلم نقل عن ذات نفسه ، وظهر انفعال الصدق فى وجهه ونبراته وإشاراته ، فإذا كان يلزم جانب الحق فيما يقول أمده ذلك بقوة لا تكتسح ، وذخيرة لا تنفد ، ففى كل غرض من أغراض الحياة دليل على صدقه ، وفى كل هاجس من هواجس

النفس برهان على يقينه . ذلك الذى يشد أعصابك إليه . فإذا رجعت إلى بيتك ظل موقفه بهيئته وإشاراته ، وكلماته ونظراته نصب عينيك . وكأنه لا يزال فى مكانه يتحدث ويفيض .

الرجل الثانى : داعية يجاهد فى قضية قد اعتقد صدقها ، ودعا الناس إلى اعتناقها ، وجعلها شغله الشاغل ، وهمه المقعد المقيم ، فهو يتحدث عنها على المنبر ، وفى حلقات الاجتماع ، وفى الطريق بين أصحابه إذا سار ، ثم هو يستغل كل سانحة وخاطرة ليتخذها تكأة لموضوعه ، وينتهز كل حادثة ليعلق عليها بما يحقق هدفه . مستعينًا بشتى المؤثرات من قصة أو مثل أو تاريخ .

قد يكون الخطيب داعية . ولكن ليس كل خطيب داعية . لأن الخطيب قد يكون محترفًا يؤدى دوره كما يراد لا كما يريد . وقد يكون المحاضر داعية ، ولكن ليس كل محاضر داعية فقد يهزك المحاضر بترتيب أفكاره وسعة اطلاعه وكثرة مصادره ، ثم هو بعد ذلك يدرس منهجًا فرض عليه دون أن يلمس شغاف نفسه ، أما الداعية الناجح ، فلابد أن يكون مؤمنًا عظيم الإيمان بما يقول ، غيورًا أعنف الغيرة على ما يعتقد ؛ فإذا وجد من الدعاة من يحترف الدعوة على غير حمية وإيمان ، فهو دخيل زنيم ، لن يصيب تأثيرًا حاسمًا فى قومه ، أو نجاحًا إيجابيًّا فى هدفه . وستمضى الأيام عليه ، فإذا هو أمام الناس منكشف غير مستور .

الداعية قدوة فى كل شىء ، قدوة فى قوله ، فلا ينطق بغير ما يعتقد ، قدوة فى عمله ، فلا يفعل ما يستهجن ، قدوة فى خلقه ، فلا يهبط إلى ما يشين . وهو حين يلزم نفسه بالدعوة قد احتل منابر الصدارة ، وأصبح موضع النقد والمحاسبة . وإذا كان الحديث عن محمد الداعية يوجب على المؤرخ أن يوضح كيف كانت قدوته للناس فى القول والعمل والخلق فإن الذى يقصر موضوعه على بيان محمد وحده لن يتعرض لغير جانب القول من جوانب الداعية ؛ لأنه ذو الصلة الأكيدة بموضوعه الأدبى . وهل يكون الأدب - لعمرى - غير حديث يكتب أو يقال .

لقد اهتم العصر الحديث بالدعوة ، وأطلق عليها كلمة الإعلام ، ومنذ قريب كنا نجد الكتب العالمية تبدئ وتعيد فى أساليب « البروباجندة » مفصلة قواعدها وأصولها ، ومبينة ما ترتكز عليه من علوم النفس والاجتماع والسياسة . وكلها ترسم الطرق لنجاح الدعوات التى ينهض بها الزعماء والمفكرون . بل إن أول معهد للبروباجندة أنشئ فى العالم كان لبحث الوسائل المغرية بنشر المسيحية والدعوة إلى تعاليمها . وقد أنشأه البابا (جريجوريس) الخامس عشر بروما منذ ثلاثة قرون ، ولا يزال قائمًا إلى اليوم . وقد أنشئت على غراره معاهد أخرى للدعوة من سياسية ، واجتماعية ، ودينية فى شتى بقاع العالم ، ووضعت لها المناهج التى تكفل للداعية طريق النجاح . ومحمد ﷺ أكبر داعية دينى فى العالم لم يتقن أساليب الدعوة فى معهد . ولكنه حقق بدعوته المثلى أحسن طريق للداعية الشريف المجاهد ، فكانت أقواله وتعاليمه بريئة من الخداع والتمويه ، وهما بعض ما تقره الأساليب الأوروبية إلى يومنا هذا . إذ إن الغاية تبرر الوسيلة فى اعتقاد القوم ، لا يتخافتون بذلك خجلين بل يعلنونها فى دساتيرهم المنشورة ، ورائدهم فى ذلك السياسى الشهير (ميكافيلى)، الذى ذاع مذهبه وراج عن غير جدارة أصيلة . حتى اشتق من اسمه صفات غير كريمة إذ أصبحت الميكافيلية فى اللغة مرادفة للوصولية والانتهازية والتسابق غير المشروع إذا ضمن الكسب والجاه . على أن ما برعت فيه البروباجندة الغربية من وضع خطوات للإعلام مع تقدم الزمن وازدهار الحضارة لم يكن بعيدًا عن خطوات محمد الداعية ، مع إيجاد الفارق الكبير بين المسلكين ، إذ إن خطوات «البروباجندة» الغربية كانت ولا زالت تقصد النفع الحزبى أو الشخصى أو القومى مهما ترتب عليه من ظلم وعسف للآخرين ، أما خطوات الدعوة النبوية فقد كانت تقصد النفع الإنسانى العام ، بحيث لو أدى إلى ظلم إنسان ما فهى حيل منكرة لا يقرها نبى الإسلام ؛ إذ إن مهمته ﷺ فى طريق الإنسانية أن يمهد السبيل بإزاحة جميع الأشواك والصخور . لا أن يميط الأذى عن مكان ليدفعه إلى مكان .

تنص دساتير الدعوة الأوروبية على أن أعظم وسائل النجاح فى الإعلام يرجع أول ما يرجع إلى تكرار الموضوع الذى يراد جذب الأذهان إليه فى كل مناسبة ؛ ليتمكن من النفوس بالترداد ، ثم إلى تهيئة الموقف بانتهاز الفرص السانحة للدعوة ، ثم إلى لباقة العرض وحسن تهيئته ، مع الإلمام الكثير بأهواء النفوس ومطارح الرغبات من الناس ، هذه أشياء أربعة يجمع عليها أساتذة الإعلام والتعبئة فى العصر الحديث ، فلننظر كيف نهض بها أستاذ المصلحين من الدعاة : محمد ابن عبد الله .

أولاً : التكرار

إذا اتجه قادة أمة من الأمم إلى اعتناق فكرة ما ، هيئوا لها وسائل الإذاعة من نشر فى الصحف ، وبسط فى الكتب ، ودعوة فى المذياع ، حتى يتكون الرأى العام بما يصب إلى سمعه ويعرض على عينه صباحَ مساءَ .

وما قامت النازية فى ألمانيا والفاشستية فى إيطاليا ، وغيرهما من الدعوات فى شتى بلاد العالم، إلا بسيل جارف من التعبئة يعتمد على التكرار والترديد ، والتكرار سلاح ذو حدين فقد يكون ناجحًا مثمرًا إذا طرق النفوس من أبواب ملونة ، وقد يكون مبعث السأم والضيق إذا فقد التلوين فى العرض ، والإبداع فى التصوير حتى ليؤدى إلى عكسه بانصراف الناس عن فحواه ، ومحمد الداعية الأكبر لابد أن يلجأ إلى التكرار فى تعاليمه ، ولكن أى تكرار يرتضيه ؟ أهو التكرار الآلى الذى يردد الأقوال متشابهة فى اللفظ دون تلوين . لو فعل ذلك ما كان أفصح البلغاء بحال ، ولكنه تكرار المغزى الواحد فى صور مختلفة من القول ، تتغاير ألفاظها ومعانيها، ولكنها تهدف إلى شىء واحد، وإذ ذاك يتأملها جميعها السامعون، وقد وجدوا فى كل نص عنصر تشويق فى العرض والتلوين ، ولنقدم بعض الأمثلة الواضحة لما نقول :

دعا الإسلام إلى خلوص النيات ، واتجاه الأعمال إلى الله لا إلى الناس ، إذ إن خلوص العمل لله وحده يصرف المسلم عما سوى الله ، فلا يشعر بسلطان لكائن بشرى يتحكم فيه ، فيورثه ذلك عزة وحرية وكرامة لدى نفسه ولدى الناس ؛ إذ الناس سواسية كأسنان المشط ، والمسيطر رب واحد يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ويدرك منابع العمل الإنسانى وبواعثه ، أهو فى صميمه خالص لوجهه عز وجل ، أم شابته شائبة أخرى من الغرض الشخصى الحقير . هذه الحقيقة الكبرى فى حياة النفس المؤمنة لابد أن تتكرر وتتردد حتى ترسخ فى الأذهان ، فانظروا كيف تكررت فى بيان محمد عليه الصلاة والسلام .

روى البخارى عن رسول الله قوله الذائع : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليها »[1] هذا قول هادف حق ، لا يكتفى نبى الإسلام أن يفوه به مرة ثم يتركه يبدد فى الهواء ، بل لابد أن يواصل به الطرق فى إلحاح حتى يتأكد ويثبت ، أفيعيده بلفظه ومعناه ؟ إن سامعيه كثير ، وإن فيهم من يتذكره وقد يتثاءب حين يستمع وما كان لأفصح البلغاء أن يعرض عن سماعه الناس . فليعرضه إذًا فى صورة أخرى إذ يقول : « عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به ، فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : فلان جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيه القرآن ، قال : كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم، وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على

(١) « التاج » ، ج ١ ، ص ٤٤.

وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : ما عملت فيها . قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار » رواه مسلم [1] .

كان حديث الأعمال بالنيات قاعدة عامة ضرب عليها المثل بدافع الهجرة من مكة إلى المدينة ، أما حديث القيامة فعدة أمثلة تصويرية لإيضاح البصائر المدخولة والنيات المريضة؛ إذ كشف الله عنها الغطاء فإذا جميع دوافعها ليست ابتغاء مرضاته، وإنما هى رياء زائف ، إن خفى عن الناس فلن يخفى عمن يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والمغزى واحد فى كلا الحديثين فهو تكرار لمعنى خلقى يلح عليه الرسول ، ولكنه تكرار الحصيف الفصيح ، الذى يملك من الصور والأخيلة والمعانى ما يقدم به الطريف الجديد .

ونحن نرى فى حديث القيامة أعمالاً من الخير فسدت لفساد النية ، فالاستشهاد، وتعليم القرآن ، وبذل الخير من صوالح الأعمال التى تهيئ لصاحبها مقعد صدق عند الله لو انحدرت من نفس مخلصة ذات إيمان ، وقد نرى نية صالحة لا تؤدى إلى خير كثير ، ولكنها بخلوصها لله ترتفع بصاحبها عنده . لقد أحسن الرسول الداعية تصوير ذلك حين كرر حديثه عن النيات مرة ثالثة فقال فى نسق جذاب :

عن أبى هريرة عن رسول الله قال : « قال رجل : لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته ، فوضعها فى يد سارق فأصبحوا يتحدثون : تصدق على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد ، لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على زانية ، فقال : اللهم لك الحمد . لأتصدقن بصدقة

(١) « التاج » ، ج ١ ، ص ٥٢.

فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنى فأصبحوا يتحدثون : تصدق على غنى فقال : اللهم لك الحمد على سارق وعلى زانية وعلى غنى ، فأتى فقيل له : أما أن صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته ، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها ، وأما الغنى فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله [1] .

ماذا يقول القارئ فى هذه الأقصوصة الرائعة ؟ ألا يعدها نمطًا من السحر البليغ وتصويرًا فاتنا لعقبى النية الصالحة إذا خلصت لله كما كان حديث القيامة تصويرًا بليغًا لعقبى النية الفاسدة إذا لوثت بأغراض الحياة ، إن الأحاديث الثلاثة – وغيرها كثير – مثال للتكرار الرائع الذى يتعمده البلغاء الأفذاذ فلا يدركه منهم غير الطائر السباق .

ولنترك تكرار هذا المعنى إلى تكرار معنى آخر .

علم رسول الله أن العباد خطاءون ، وأن المعصية ممهدة السبيل أمام الغرائز الهابطة والنوازع المسفة ، وأن التوبة نافذة الخلاص مما يرتكب من الآثام وقد جاءت آيات القرآن مبشرة بالتوبة النصوح ، داعية إلى استئناف صفحات جديدة من الحياة، تنسى لديها سوالف المعاصى ، ويرقى سلم الطاعات إلى مرتفع طاهر لا انتكاس به ولا ارتكاس . ومن الضرورى أن تسهب أحاديث الداعية الأعظم فى تحبيذ التوبة وتمجيدها والنفور من المعصية ومجافاتها ، حتى سار فى ذلك المثل السائر بقول رسول الله : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ، وقوله على لسان ربه : « لأنين المذنبين أحب إلىّ من صراخ العابدين » . وتكرار الدعوة إلى التوبة فى أدب الرسول مما يرضى عشاق الأدب الرفيع حين تتنوع معارض اللفظ رافلة فى أبهى الحلل ، وسائرة فى غاية واحدة هى الغاية الخلقية الداعية إلى الطهور من الآثام ، تأملوا قول رسول الله فى رواية البخارى عن عائشة :

(١) ج ٢ ، ص ١٣١ من « صحيح البخارى » ط صبيح .

« لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة ، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله . قال : أرجع إلى مكانى ، فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده » [1] .

أى عرض لمنزلة التوبة عند الله أبهج من هذا العرض . لقد تحدث رسول الله عنها فى أقصوصة موجزة ، ترسم فجيعة إنسان وحيد يعتسف الصحراء فى أعز شىء لديه . فى حياته التى توشك أن تفنى بعد فقد الشراب والطعام والناقة ، وفى أى مكان ؟ فى مهلكة ترمى بالرعب والحمام ، وإن العطش ليلهب أحشاءه فى الداخل ، وقد جلده الحر بأقسى سياط فى الخارج حتى إذا استيأس ، ترقب نهايته المظلمة وأطبق عينيه ليحلم بالخاتمة الحزينة ، ولكنه يستيقظ ليرى الراحلة بما حملت أمامه؟!! يا لها من فرحة لا تعادلها فرحة فى الحياة ، إنها فرحة الغريق بطوق النجاة. وهى فى الحديث تقل عن فرحة الله بتوبة عبده من الآثام . لنذكر أقصوصة القاتل من بنى إسرائيل وقد تقدمت فى فصل سابق . حين قتل تسعة وتسعين ، ثم أكملها مائة وتنازعته ملائكة الرحمة والعذاب بعد موته ، فاحتوته ملائكة الرحمة فهى الأخرى نموذج ثان لتكرار الحديث عن هدف واحد دون ملل ، ثم لننتقل إلى النموذج الثالث من قول رسول الله من رواية البخارى عن أبى هريرة :

« إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره ، فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم أى رب ، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه هلك قال : سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفر لك اليوم » .

(هذا هو المؤمن التائب) وأما الكافر والمنافق : ﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2] .

---

(١) « هداية البارى » ، ج ٢ ، ص ٨٧.

(٢) سورة هود : ١٨ . « هداية البارى » ج ١ ، ص ١٠٧ .

وإلى نموذج رابع عن التوبة من قوله عليه الصلاة والسلام من رواية البخارى عن أبى هريرة [1] :

« إن عبدًا أصاب ذنبًا - وربما قال أذنب ذنبًا - فقال : رب ، أذنبت ذنبًا ، وربما قال : أصبت فاغفره فقال ربه : « أعَلِمَ عبدى أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدى » ، ثم مكث ما شاء الله . ثم أصاب ذنبًا أو أذنب ذنبًا ، فقال : رب ، أذنبت أو أصبت فاغفره . فقال : « أعَلِمَ عبدى أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدى » ، ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنبًا وربما قال : أصاب ذنبًا فقال : رب ، أصبت أو قال أذنبت فاغفره لى ، فقال : « أعَلِمَ عبدى أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدى ثلاثًا ، فليعمل ما شاء » .

هذا هو التكرار البليغ الذى يشرق على لسان الداعية الملهم أدبًا طريفًا لا سأم فيه ، هات أشد المتحاملين إنكارًا لمزية التكرار ، واقرأ عليه نماذج التوبة فى أدب الرسول ، ودعه يسأل نفسه أوجد سأمًا أم لذة ! أآنس مللاً أم متعة ! ثم ليسأل نفسه بعد ذلك عن مصدر اللذة والإمتاع يجبك أنه تنوع القول فى معارض طريفة من التصوير .

أنريد أمثلة أخرى من التكرار فى غرض آخر ؟ إن المجال ليتسع ويزيد .

لقد دعا الإسلام إلى الشهادة فى سبيل الله . والروح أغلى ما يملك الإنسان ، فلن يقدمها هينة رخيصة إلا إذا أصبح دين الله أحب إليه من نفسه ، ولابد لذلك من ثمن خطير هو فرحة الله بالشهيد ثم متعة روحه برضوان الله . إن نبى الإسلام ليحرص على الدعوة إلى الاستشهاد فى سبيل الله . وإنه يرى تكرار القول مما يطمئن النفوس ، فلابد أن يعرض ذلك مرة بأسلوب المرغب المدافع حين يقول فى رواية الترمذى عن أبى الدرداء :

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٦٢.

« للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له فى أول دفعة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور » [1] .

كما يعبر عنه مرة أخرى ، منتحيًا منحى آخر من البيان ؛ إذ يقول عن عائشة فى رواية البخارى : « كل كلم يكلمه المسلم فى سبيل الله يكون يوم القيامة كهيئتها إذا طعنت تفجر دمًا ، فاللون لون الدم والعرف عرف المسك » [2] كما يعبر عن ذلك فى أسلوب تصويرى يرتفع إلى القمة من الإبداع نجده فيما حكاه عبد الله بن مسعود أنه سئل عن قول الله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[3] فقال ﷺ : « إن أرواحهم فى طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش ، فاطلع إليهم ربك اطلاعة ، فقال : هل تستزيدون شيئًا فأزيدكم ، قالوا : ربنا ، وما نستزيد ونحن فى الجنة نسرح حيث شئنا ، ثم اطلع إليهم الثانية فقال : هل تستزيدون شيئًا فأزيدكم ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا قالوا : تعيد أرواحنا فى أجسامنا حتى نرجع إلى الدنيا فنقتل فى سبيلك مرة أخرى » [4] .

فماذا عسى أن يبلغ البيان من التأثير فوق الذى يبلغه هذا القول البديع ، أخشى أن نفسح المجال لأمثلة أخرى من تكرار الداعية فننقل جل ما روى عن رسول الله :

---

(١) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٣٤٠.

(٢) « هداية البارى » ، ج ٢ ، ص ١٠٧.

(٣) سورة آل عمران : ١٦٩ .

(٤) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٩٠.

ثانيًا : انتهاز الداعية للفرص الملائمة :

الداعية الصادق : إنسان أخذت عليه الدعوة مشاعره ، وملكت أحاسيسه فهو ينفرد بنفسه ويجتمع بصحبه ، ويسافر إلى مقصده وقلبه مشغول بما يدعو إليه ، وكأن تيارًا جاذبًا يدفعه إلى التفكير بإرادة وبدون إرادة فيما ينبغى أن يقول وأن يفعل، وهو لابد منتهز كل فرصة لتحقيق رسالته، ومهتبل كل سانحة لقنص مآربه، وكذلك كان الرسول مع رسالته العظيمة .

إن أهدافها العالية من السعة ، بحيث تشمل محيط الحياة جميعه .. فما أكثر ما يسنح فى الحياة من الفرص لتأكيد هذه الأهداف ، وما أذكى الداعية الملهم فى اقتناص هذه السانحات قبل أن تبيد .

إن من أهداف الإسلام أن يرتفع بالنفس عن المذلة وهوان الاستجداء والسؤال ذل ولو أين الطريق، كما قال أرسطو ، فكيف إذا كان استجداء لبعض المال ؟ وإن محمدًا ليجد بعض أصحابه يلحون ويسألون ، ويجيئه أحدهم سائلاً فينتهز الفرصة ، وقد أمكن منها السائل باستجدائه المتكرر ليقول له واسمه حكيم بن خزام :

« يا حكيم ، إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى » [1] .

فتبلغ العظة من نفس حكيم أبلغ المواقع ، ويتأسف على ما فرط منه ثم يقول لرسول الله فى ندم :

« والذى بعثك بالحق ، لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا » [2] .

---

(١) « التاج » ، ج ٢ ، ص ٤٠.

(٢) « التاج » ، ج ٢ ، ص ٤٠ .

وقد كان الرجل صادقًا فى قوله ، حيث أراد أبو بكر ومن بعده عمر أن يعطياه نصيبه من الفىء ، فأبى معارضًا فى شدة ، تمسكًا بما قال لرسول الله ، وهكذا أثمرت الموعظة إذ صادفت فرصتها المواتية .

وأمثلة أخرى : لقد أعلن الإسلام أن رحمة الله واسعة ، وأن الله غافر الذنب قابل التوب ، ونزل فى ذلك من الآيات وجاء من الأحاديث ما لا يحصى ، ولكن الداعية الحريص يقع فى مجلس من أصحابه على بعض المشاهد العاطفية فيهتبل الفرصة للحديث عن رحمة الله ، إذ نظر المسلمون عقب بعض الغزوات إلى امرأة من السبى أخذت تدور بعينيها ذاهلة وجلة ، كأنها تبحث عن شىء ، حتى إذا وقعت عينها على طفل نائم أسرعت إليه فى لهفة وألصقته بأحشائها طويلاً ، ثم ضمته إلى صدرها فى حنان . فتأثر القوم ، وانتهز الداعية العظيم هذه السانحة فسأل أصحابه : أترون هذه طارحة ولدها فى النار ؟ فقالوا فى استنكار : لا ! فقال ﷺ : الله أرحم بعباده من هذه بولدها [1] .

ويجلس الداعية الملهم فى مسجده ، فيأتيه رجل من الأزد كان قد استعمله على الصدقة ، فيقدم إليه شيئًا ويقول : هذا لكم ويمنع شيئًا فى يده ، ويقول : هذا أهدى إلى ، فتقبل السانحة بما يهيئ للداعية الغيور مجال القول ليحقق هدفًا كبيرًا من أهداف الإسلام فى استئصال الرشى ، ويصعد على المنبر داعيًا أصحابه ليقول فيهم بعد حمد الله :

« ما بال عامل أبعثه فيقول : هذا لكم ، وهذا أهدى إلى ، أفلا قعد فى بيت أبيه أو بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا ! والذى نفس محمد بيده ، لا ينال أحد منكم منها شيئًا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ، بعير له رغاء . أو بقرة لها خوار ، أو شاة تعر ، قال الراوى ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتى إبطيه ، ثم قال : اللهم ، هل بلغت ، اللهم هل بلغت » [2] .

---

(١) « هدية البارى » ، ج ر ، ص ١٢ .

(٢) « التاج » ، ج ٣ ، ص ٥٦ .

ويعظ الناس فى مجلس علمى بالمسجد فيتحلق حوله الأصحاب . ويقدم ثلاثة نفر ، فيجد أحدهما فرجة فيجلس ، ويقعد الثانى خلف الحلقة ، أما الثالث فيذهب من حيث أتى ، فلا يدع النبى فرصة سنحت للإرشاد تذهب دون أن تؤتى الثمرة ، فيلتفت إلى أصحابه قائلاً : « ألا أخبركم عن النفر الثلاثة أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله ، وأما الآخر فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض ، فأعرض الله عنه »[1] فمن الذى يسمع بهذا القول ثم يعرض بعد عن حديث الرسول .

أما المثل الرائع حقًّا فى انتهاز الفرصة للتوعية والإرشاد مهما قامت دونها المصاعب واكتنفتها الأعباء ، فموقفه ﷺ حين كسفت الشمس يوم وفاة نجله الوحيد إبراهيم . لقد دمعت عينا الأب الواله ، وسأله أصحابه عن دمعه فقال قولته المشهورة : « إن العين لتدمع ، وإن القلب ليحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » ، ثم نظر فوجد الشمس قد كسفت وسمع الناس يقولون لقد كسفت أسفًا على موت إبراهيم ، فلم يشغله حزنه الممض عن أن يغتنم الفرصة ليصحح الأخطاء وينبه الأذهان . فيسرع إلى المنبر ليجمع الناس قائلاً فى قوة:

« إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكن يخوف الله بهما عباده ، فإذا رأيتموهما فصلّوا وادعوا الله حتى ينكشف ما بكم[2] .

هذا الموقف وحده ينبئ عن معدن الشرف العريق فى نفس الرسول . لو كان زعيمًا انتهازيًّا لعد الأمر آية خارقة تشد أزره وتعلى مكانه ، فآثر الصمت لتمضى المقالة فى كل مكان . ولكن محمدًا أرسل بالإسلام ليضىء العقول ، ويبدد الخرافات، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور ، فكيف يصبر على جهل ينشر ويذاع ؟ لابد أن

(١) « هدية البارى » ، ج ١ ، ص ١٧٩.

(٢) « هدية البارى » ، ج ١ ، ص ١١٢.

يضع الأمر فى نصابه ، فهو بإيمانه ليس بحاجة إلى شائعة خرافية تزيد من اعتباره فى الناس ، بل إنه يعد نفسه قد تخلى عن رسالته إذا ارتكزت فى بعض أصولها على الخرافات ، فليصعد إلى المنبر وليرشد الناس . وسيجد الإرشاد موقعه إذا لمس المناسبة الهائلة التى تنقطع دونها المناسبات .

لعل فيما قدمناه من الأمثلة ما يدل على بصر الداعية الحصيف بانتهاز المناسبات، فلننتقل إلى أصل ثالث من أصول الدعوة كما بينها المفكرون .

ثالثًا : لباقة العرض :

لا يكفى أن يكون لدى الداعية ما يقول ، بل يجب أن يعرف كيف يؤدى ما يريد أن يقول ، لأن الثوب الذى يظهر المعانى مما يساعد على إبرازها فى وضوح واتساق إن حاكته يد صانع حكيم ، ومن هنا استعان موسى عليه السلام بأخيه هارون لينوب عنه فى الإفصاح لدى قومه ، حين قال لربه : ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[1] فأجاب الله طلبته إذ قال مطمئنًا خاطره :

﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[2] ، ونحن نرى كثيرًا من الناس تجيش صدورهم بالمعانى ، ولكنهم يكابدون صعوبات شاقة فى إظهارها ، وقد يضطرون إلى وأدها وأدًا دون أن يكشفها للناس لسان مبين ، وما مثلهم إلا كمن قيل فيه :

تجيش المعانى الدافقات بصدره ... ويسكت عنها لا يميل إلى الجهر
كشاعر قوم صاغ أجمل حكمة ... ولكنه قد ضاق بالوزن والبحر [3]

(١) سورة القصص : ٣٤ .
(٢) سورة لقصص : ٣٥ .
(٣) من قصيدة لى ضاعت ولم أجدها .

أما محمد الداعية فما كان أقدره على الإفصاح المشرق والعرض البديع ؛ إذ أوتى فى ذلك لباقة خارقة كانت مصدر نجاحه فى أكثر ما تم على يديه من إصلاح ، وإنك لتقرأ الأثر الباقى من آثاره ، ساقه وحى الساعة فنجد به من حسن التأتى ولطف التصوير ما يجذبك جذبًا إلى استعادته دون ملل ، حيث ضرب على أوتار قلبك بأجمل الألحان قوة وروعة وتأثيرًا ، إنه يريد - فى موقف ما - أن يدعو إلى عيادة المريض وإطعام الجائع وروى الظامئ ، فهل يقول عودوا المريض وأطعموا الجائع واسقوا الظامئ ثم يسكت ؟

لابد أن يبرز هذه المطالب الإنسانية فى صورة لا تنسى . ولابد أن يستعين بإلهامه النبوى ، فيوحى إليه بما يرويه عن ربه إذ يقول فيما رواه مسلم :

« عن أبى هريرة عن رسول الله أنه قال : إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدنى ، قال : يا رب ، كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلانًا مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده . يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمنى ، قال : يا رب ، كيف أطعمك وأنت رب العالمين . قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ، يا ابن آدم ، استسقيتك فلم تسقنى ، قال : يا رب ، كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما أنك لو سقيته وجدت ذلك عندى »[1] .

فهل يجد القارئ دعوة خلقية إلى الآداب النبيلة سيقت أجمل من هذا المساق ؟ ومن الذى يقول ربه استطعمتك واستسقيتك واستزرتك ثم لا يخفض رأسه خجلاً أن لم يصدع بأمر الله . إن نص الحديث الباهر ليغنى عن كل تعليق .

والذين يكتبون عن أساليب الدعاة اليوم ، يوجبون على الداعية أن يستعين بالحركة اللافتة والإشارة المعبرة والانفعال المؤثر ، لتظهر حرارة إخلاصه فى صورته

(١) « التاج » ، ج ٣ ، ص ٢٠٦.

أمام الناس كى يدق من قلوبهم أوتار الإعجاب . وكل ذلك مما يؤثر فى نجاح الدعوة إذا كان النبع الذى فى أعماقه يتدفق صفيًّا نقيًّا طاهرًا ، ولكنه قد يستحيل إلى عكس ما يراد منه لو كان مجرد تمثيل خطابة يؤديه الداعية على المنبر خضوعًا لتعاليم صبت فى أذنه صبًّا ، فهو كمن يزاول التجارب الأولى على خشبة المسرح دون أن ينفعل بالموضوع . أما رسول الله فكانت إشاراته وحركاته فى مجال الدعوة ذاتية ينبعث بها الانفعال الصادق دون تزييف . إنه فى إحدى جلساته يعلم أن بعض الناس يشهدون الزور دون استحياء ، فتهديه لباقته الحصيفة فى العرض الرائع أن يجمع إلى النهى عن شهادة الزور عدة فظائع متفق على إنكارها ، لتقرن بها شهادة الزور فتكون خاتمة الفظائع من المنكرات ، وإنه ليستعين بالحركة الصادقة دون افتعال ليظهر ما يعنيه من تشديد النكير على المزورين . فيمهد أولاً للحديث بسؤال لافت للأذهان إذ يقول : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » إن كل سامع مشوق إلى أن يعرف الإجابة لا محال فيصيح الجميع منتبهين : بلى يا رسول الله فيقول فى تؤدة : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق - قال الراوى . وكان متكئًا فجلس ، ثم قال : ألا وشهادة الزور ألا وشهادة الزور ألا وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت [1] . إن اعتدال الرسول بعد اتكائه لما يدفع إلى اهتمام مفرط أغنت فيه الحركة عن أفصح التعبيرات . وإن تكرار النهى عن شهادة الزور لما يجعل المزور يذوب خجلاً ، وألفاظ الحديث تنهال كالقذائف على رأسه مهددة متوعدة . وإن الحديث بذلك يدل على أجمل لباقة واعية فى تهيئة الأذهان واستيجاش الأحاسيس .

إن تقديم السؤال فى الحديث قبل الدعوة إلى مضمونه التشريعى . ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ لقرع للأجراس إلى دعوة مهمة تستلزم الانتباه . وإن الداعية الأعظم ليحرص على ذلك ، فتراه يسأل قبل أن يتكلم فى حديث ألمحنا إليه قريبًا ،

(١) ج ٨ ، ص ٤ « صحيح البخارى » ط صبيح .

أترى هذه طارحة ولدها فى النار ؟ ويجعل السؤال المفاجئ من بعض سماته الوعظية لما يلمس من قرعه للأسماع وجذبه للأذهان ، وما يريد الداعية غير ذلك ؟

لقد توسط محمد ﷺ أصحابه ذات مرة ، وأراد أن يحذر من اقتراب المحرمات ويبرز عقابها عند الله فماذا فعل ؟

« إنه - جريًا على خبراته النفسية - بدأ أصحابه بهذا السؤال كما فى رواية مسلم عن أبى هريرة : « أتدرون من المفلس من أمتى يوم القيامة ؟ فقالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال ﷺ : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا ، وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » .

فهل تجد أبرع من هذا الثوب البيانى الرائع لإبراز هذا الوعيد الصارخ سؤالاً وجوابًا ، وشرحًا وتمثيلاً ، وهل أوحت به غير لباقة العرض الجذاب عند الداعية الحصيف .

ثم ماذا ؟

إن الداعية ليحس من بعض النفوس تكاسلاً عن صلاة الفجر ، إذ إن سلطان النوم حينئذ من القهر والغلب بحيث يستلب الإرادة عند الكثيرين ، فهل يقول محمد : يا قوم ، اتركوا النوم فورًا وقوموا إلى الفجر ، لو اقتصر على ذلك ما كان أفصح بليغ تمخضت عنه العربية فى عصورها الزاهرات ، ولكن لباقة العرض عنده تدفعه إلى أن يقول عن أبى هريرة فيما رواه البخارى :

« يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب كل عقدة مكانها ، عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن

توضأ انحلت عقدة ، فإذا صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلانًا [1] .

لم يتعد الحديث الخالد تصوير النفس البشرية كما نعهدها بحال ، فنحن نعرف من نفوسنا همودًا واسترخاء عند اليقظة ، فإذا أسرعنا إلى الوضوء والصلاة حل النشاط مكان الهمود ، وإذا سردنا دون وضوء فقد خبث يوم الكسول .

لقد قلت تعقيبًا على ما استشهدت به من الأحاديث المصورة للتكرار البليغ : أخشى أن نفسح المجال لأمثلة أخرى من تكرار الداعية ، فننقل جل ما روى عن رسول الله ، أفأعيد هذا مرة أخرى فأقول : نخشى أن نفسح المجال لأمثلة من لباقة العرض فننقل كل ما روى عن رسول الله .

رابعًا : الخبرة الصحيحة بالنفوس :

إن علم النفس يدرس الآن فى معاهد الإعلام المختلفة بإفاضة قديرة ، ليكون المحاضر أو الكاتب أو الخطيب أو الإذاعى أو الصحافى ، أو كل من يمت إلى الإفصاح بسبب ما ، خبيرًا بطوايا النفوس ؟ فهل غابت هذه الخبرة الدقيقة عن رسول الله ؟

لو لم يكن نبى الإسلام صاحب خبرة صادقة بالنفوس ما استطاع أن ينهض بدعوته بين قوم متنافرين ، فيرأب الصدع ويلم الشمل مع اختلاف المنازع واصطدام الأهواء : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ

(١) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٣٢٦.

﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[1] ، وتاريخ جهاده ناطق بصدق فراسته وحسن استشفافه ، وبعد مرماه ، وهذا ما ينطق به أدبه البليغ . ألم يقل رسول الله فى بعض ما قال فى رواية البخارى : « والله إنى لأعطى الرجل وأدع الرجل ، والذى أدع أحب إلىّ من الذى أعطى ، ولكنى أعطى أقوامًا لما أرى فى قلوبهم من الجزع والهلع وأكل أقوامًا إلى ما فى قلوبهم من الغنى والخير »[2] .

فما معنى هذا . معناه أن لكل إنسان - سعد بلقيا الرسول - وضعًا خاصًّا فى نفسه بناه ﷺ على ما تفرس فيه من الأحوال والمصادفات .

يتحدثون أن أبا بكر دخل على رسول الله ﷺ وهو مضطجع وعليه ثوبه ، فقضى حاجته وخرج ، ودخل عمر فقضى حاجته وخرج ، ثم جاء على فقضى حاجته وخرج ، ثم جاء عثمان فجلس له رسول الله ﷺ فقالت له عائشة : لم تصنع هذا بأحد . فقال ﷺ إن عثمان رجل حيى ، وإنى خشيت إن أذنت له على تلك الحال أن لا يبلغ إلى فى حاجته[3] .

فهل نجد خبرة دقيقة بنفوس الصحابة أبلغ من خبرة رسول الله . لقد ضرب لنا المثل من قبل بخطبته ﷺ فى الأنصار حين ساءهم تفضيل بعض المؤلفة قلوبهم عليهم فى الفىء . فلمس محمد ذلك من نفوسهم وأسال الدمع من عيونهم حين هتف بقوله : « ألا يرضيكم يا معشر الأنصار أن ترجع قريش بالشاة والبعير وترجعون برسول الله .

فصاحوا فى صوت واحد . رضينا بالله ورسوله»[4] .

فأى حصافة تلك . وأى استشفاف ذلك ؟!

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٣ .

(٢) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ٨٨.

(٣) « العناصر النفسية فى سياسة العرب » ، ص ١٠ .

(٤) يرجع إلى فصل (محمد الخطيب من هذه الرسالة) .

وبعد ، فلقد وافقت صفات الدعاة كما قررها العلم الحديث بعض المزايا الكامنة لدى رسول الله ، واختص دونهم بصفات لا يتعلق بغبارها أحد من الناس أفيكون على ظهر البسيطة من هو أجدر منه بلقب « الداعية المثالى » . حين نعترف بالحق لصاحبه منصفين .

* * *